٥ ـ وَالِهَة امرأة لوط عليه السلام

إن من أبسط قواعد الحياة بين الزوجين أن تكون المرأة مطيعة لزوجها، معينة له على أعدائه، أمينة على أسراره، ولكن قضت مشيئة الله تعالى أن تحرم امرأة «لوط» عليه السلام من كل ذلك، فأية امرأة كانت تلك التي ابتلى الله بها نبيه «لوطاً» عليه السلام؟

قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم، الآية: ١٠].

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» عن السهيلي أنه قال: واسم امرأة لوط «والهة»[1]. ولما أُمِرَ «إبراهيم» عليه السلام بالدعوة إلى عبادة الله وحده، كان ابن أخيه «لوط بن هاران» أول من آمن به، واتبع هداه، وقد أشار التنزيل العزيز إلى ذلك حيث قال: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت، الآية: ٢٦]، ولكن امرأته «والهة» أبت متابعته، وأعرضت عن دخول واحة الإيمان، وأصرت على الكفر والعصيان، وسلكت سبيل الشيطان، فجمعت بين عداوتين قبيحتين، أولاهما: عداوتها لله، وثانيهما: عداوتها لزوجها نبي الله، وكفى بذلك مؤهلاً لها لتدخل النار، مع الداخلين من المستكبرين والفجار والكافرين.

وذكر القرآن الكريم امرأة «لوط» عليه السلام في ثمانية مواضع، شملت سورة الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنحل، والعنكبوت، والصافات، والتحريم.

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٠١).

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف، الآيات: ٨٠ - ٨٤].

وجاء في تفسير الآلوسي «روح المعاني» لهذه الآيات: (ولوطاً) هو ابن هاران بن تارخ، وابن إسحاق ذكر بدل تارخ «آزر»، وأكثر النسابين على أنه عليه السلام ابن أخي «إبراهيم» عليه السلام، ورواه في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن صرد: أن أبا «لوط» عليه السلام عم «إبراهيم» عليه السلام، وقيل: إن «لوطاً» كان ابن خالة «إبراهيم»، وكانت «سارة» زوجته أخت «لوط»، وكان في أرض بابل من العراق «إبراهيم» فهاجر إلى الشام، ونزل فلسطين، وأنزل «لوطاً» الأردن، وهو كرة ـ كورة ـ بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل «سَدُوم» وهي بلدة بحمص.

وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أرسل «لوط» إلى المؤتفكات، وكانت قرى «لوط» أربع مدائن سَدُوم، وأمورا، وعامورا وصبوير، وكان في كل قرية مائة ألف مقاتل، وكان أعظم مدائنهم «سدوم»، وكان «لوط» يسكنها وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة يوم وليلة.

وقد أخرج البيهقي وغيره، عن عمرو بن دينار، قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم «لوط»، والذي حملهم على ذلك ـ كما أخرج ابن عساكر وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوائطهم ثمار خارجة على ظهر الطريق، وأنهم أصابهم قحط وقلة من الثمار، فقال بعضهم لبعض: إنكم إن منعتم ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش، قالوا: بأي شيء نمنعها؟ قالوا: اجعلوا ستتكم أن تنكحوا من وجدتم في بلادكم غريباً، وتغرموه أربعة دراهم، فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك ففعلوه واستحكم فيهم.

وفي بعض الطرق أن إبليس عليه اللعنة، جاءهم عند ذكرهم ما ذكروا في

هيئة صبي أجمل صبي رآه الناس فدعاهم إلى نفسه فنكحوه، ثم جرؤوا على ذلك.

وجاء في رواية ابن أبي الدنيا، عن طاوس: أن قوم «لوط» إنما أتوا أولاً النساء في أدبارهن، ثم أتوا الرجال، وفي قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ دون من الناس مبالغة لا تخفى.

وإثر نصح «لوط» عليه السلام لقومه بنبذ هذه الفاحشة المقيتة، اقترح المستكبرون، وقالوا للمباشرين ذلك العمل الشنيع: أخرجوهم من قريتكم ومقصودهم السخرية بلوط عليه السلام، ومن معه [1].

ولما أبوا الاستجابة إلى دعوة «لوط» عليه السلام قضت المشيئة بهلاكهم، وأرسل الله مطراً عجيباً لم يكن من الماء، بل كان من حجارة من سجيل، لقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر، الآية: ٧٤]، فنجي «لوط» عليه السلام وأهله، أي من اختص به واتبعه من المؤمنين سواء أكانوا من ذوي قرابته عليه السلام أم لا؟، وقيل: ابنتاه: «ريثا» و«يغوثا».

واستُثْنِيَت امرأته «والهة» من النجاة، وفي رواية: أنه عليه السلام أخرجها مع أهله، ونهاهم عن الالتفات، فالتفتت هي، فأصابها حجر فهلكت، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٤] أي مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء، وذكر «الآلوسي» رحمه الله: وقد مكث «لوط» عليه السلام على ما في بعض الآثار ثلاثين سنة يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم، فلم يجيبوه، وكان «إبراهيم» عليه السلام يركب حماره، فيأتيهم وينصحهم فيأبون أن يقبلوا، فكان يأتي بعد أن أيس منهم فينظر إلى «سَدُوم»، ويقول: «سدوم»! أي يوم لك من الله تعالى سدوم! حتى بلغ الكتاب أجله، فكان ما قص الله تعالى على نبيه ﷺ.

وتابع «الآلوسي» القول: ثم إن «لوطاً» عليه السلام كما أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن الزهري، لما عُذِّبَ قومُه لحق بإبراهيم عليه السلام فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى إليه، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش.

---

(١) انظر تفسير (روح المعاني) (٨/ ١٦٨ ـ ١٧١).

وجاء في خبر أخرجه البيهقي في «الشُّعَب»، عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «**لعن الله تعالى سبعة من خلقه فوق سبع سماوات، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، ولعن بعد كل واحد لعنة لعنة فقال: ملعون ملعون ملعون من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط**» الحديث.

وجاء أيضاً: أربعة يصبحون في غضب الله تعالى، ويمسون في سخط الله تعالى، وعَدَّ منهم من يأتي الرجل.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وغيره، عن مجاهد رضي الله عنه أن الذي يعمل ذلك العمل لو اغتسل بكل قطرة من السماء، وكل قطرة من الأرض لم يزل نجساً، أي أن الماء لا يزيل عنه ذلك الإثم العظيم الذي بَعَّده عن ربه، والمقصود تهويل تلك الفاحشة. وألحق بها بعضهم «السحاق»، وبدأ أيضاً في قوم «لوط» عليه السلام، فكانت المرأة تأتي المرأة، فعن حذيفة رضي الله عنه: إنما حَقَّ القول على قوم «لوط» عليه السلام حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال. وعن أبي حمزة رضي الله عنه، قلت لمحمد بن علي: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وآخرون إتيان المرأة في عجيزتها.

واستدل بما أخرج غير واحد، عن علي كرم الله وجهه: أنه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكواء: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال كرم الله تعالى وجهه: سَفُلْتَ سَفَّل الله تعالى بك، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعرَاف، الآية: ٨٠].

ولا يخفى أن ذلك لا يتم إلا بطريق القياس، وإلَّا فالفاحشة في الآية مبينة بما علمت. نعم جاء في آثار كثيرة ما يدل على حرمة إتيان الزوجة في عجيزتها، والمسألة خلافية، والمعتمد فيها الحرمة.

ولا فرق في «اللواطة» بين أن تكون بمملوك أو تكون بغيره.

واختلفوا في كفر مستحل وطء الحائض ووطء الدبر، وفي «التتارخانية» نقلاً عن «السراجية»: اللواطة بمملوكه أو مملوكته أو امرأته حرام، إلَّا أنه لو استحله لا يكفَّر، وهذا بخلاف اللواطة بأجنبي فإنه يكفَّر مستحلها قولاً واحداً.

وما ذكر مما يعلم ولا يعلم، كما في «الشرنبلالية» لئلا يتجرأ الفسقة عليه بظنهم حله، وفي سورة «هود» قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود، الآيات: ٧٧ - ٨٣].

قال «الآلوسي» في تفسير هذه الآيات: عن ابن عباس ﷺ قال: انطلقوا من عند«إبراهيم» عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه[1] في صورة غلمان حسان الوجوه فلذلك سيئ بهم أي أحدث له عليه السلام مجيئهم المساءة لظنه أنهم أناس، فخاف أن يقصدهم قومه، ويعجز عن مدافعتهم، وقيل: كان بين القريتين ثمانية أميال فأتوها عشاء، وقيل: نصف النهار، ووجدوا «لوطاً» في حرث له.

وقيل: وجدوا بنتاً له تستقي ماء من نهر «سَدُوم»، وهي أكبر محل للقوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئاتهم فخافت عليهم من قوم أبيها، فقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها، فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا: إنا نريد أن تضيفنا الليلة، فقال: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم في الأرض، وقد كان الله تعالى قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم «لوط» أربع شهادات.

فلما قال هذه، قال «جبريل» عليه السلام: هذه واحدة، وتكرر القول منهم حتى كرر «لوط» الشهادة، فتمت الأربع، ثم دخل المدينة، فدخلوا معه منزله[2]، وبينما كان «لوط» عليه السلام في بيته مع أضيافه، أقبل قومه إليه مسرعين يريدون فعل

(١) روح المعاني (٨/ ١٧١ ـ ١٧٣).
(٢) روح المعاني (١٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

الفاحشة بهم، فعرض عليهم «لوط» بناته يتزوجونهن فهن أحل لهم وأطهر، وكانوا قد خطبوهن من قبل إلَّا أنه ردَّهم لما يعلم من خبثهم وعدم كفاءتهم لبناته الطاهرات، ولعدم جواز زواج المؤمنات من الكفار، فإن ذلك كان جائزاً حتى منعه رسول الله ﷺ بعد أسر صهره «أبي العاص بن الربيع» في غزوة بدر، وتخلية سبيله على شرط أن يسرح ابنته «زينب» ويرسلها إليه في المدينة، ثم أثنى عليه رسول الله ﷺ لأنه أوفى بما وعد، ولما أسلم ردَّها عليه رسول الله ﷺ بالنكاح الأول كما جاء في الخبر. وقالوا له: لا رغبة لنا في بناتك لأنك كنت ترى أن لا حق لنا بهن، وإنك لتعلم أن رغبتنا في الذكور، فقال لهم: وددت لو أن قوتي تمكنني من دفعكم بنفسي عنهم، أو ألجأ إلى ركن شديد أتمنع به عنكم وأنتصر به عليكم.

قال «الآلوسي» في تفسير الآية: وقد عَدَّ رسول الله ﷺ هذا القول منه عليه السلام بادرة واستغربه، فقد أخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «**رحم الله تعالى أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد**» يعني عليه الصلاة والسلام به الله تعالى، فإنه لا ركن أشد منه جل جلاله.

إذا كان غير الله للمرء عدة ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وجاء أنه سبحانه لهذه الكلمة، لم يبعث بعد «لوط» نبياً، إلَّا في منعة من عشيرته، وفي البحر أنه يجوز ـ على رأي الكوفيين ـ أن تكون (أو) بمعنى (بل) ويكون عليه السلام قد أضرب عن الجملة السابقة، وقال: بل آوي في حالي معكم إلى ركن شديد وكَنَّى به عن جناب الله تعالى، ولا يخفى أنه يأبى الحمل على هذه الكناية تصريح الأخبار الصحيحة بما يخالفها، وقرأ «شيبة» و«أبو جعفر» (آوى) بالنصب على إضمار أن بعد (أو) فيقدر بالمصدر عطفاً على (قوة)، ونظير ذلك قوله:

ولولا رجال من رِزامٍ أعِزَّةٌ ... وآلُ سُبَيْعٍ أو أَسُوءَكَ عَلْقَمَا

أي: لو أن لي بكم قوة أو أوياً، روي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة عليهم السلام ما على «لوط» من الكرب ﴿قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾

[هُود، الآية: ٨١] بضر ولا مكروه، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن «جبريل» عليه السلام رب العزة في عقوبتهم، فأذن له، فلما دنوا طمس أعينهم، فانطلقوا عمياً يركب بعضهم بعضاً، وهم يقولون: النجاء، النجاء، فإن في بيت «لوط» قوماً سحرة.

وفي رواية: أنه عليه السلام أغلق الباب على ضيفه فجاؤوا فكسروا الباب، فطمس «جبريل» أعينهم، فقالوا: يا لوط! جئتنا بسحرة، وتوعدوه، فأوجس في نفسه خيفة، قال: يذهب هؤلاء ويذروني، فعندها قال «جبريل» عليه السلام: (لا تخف إنا رسل ربك فأسر بأهلك بقِطْع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك). روي أنه أخرجها معهم وأمر ألَّا يلتفت منهم أحد إلَّا هي، فلما سمعت هَدَّة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه! فأدركها حجر فقتلها(١).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هُود، الآية: ٨٢] أي وقت عذابنا أو الأمر به، فالأمر على الأول واحد الأمور، وعلى الثاني واحد الأمور ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هُود، الآية: ٨٢] وهي مدائن قوم «لوط» وهي: المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة، وصعره، وعصره، ودوما، وسَدُوم.

وقيل: سبع أعظمها سَدُوم، وهي القرية التي كان فيها «لوط» عليه السلام، وكان فيها على ما روي عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله تعالى من ذلك.

وقيل: إن هذا العدد إنما كان في المدائن كلها.

وقيل: إن ما كان في المدائن أكثر من ذلك بكثير، والله تعالى أعلم.

روي أن «لوطاً» عليه السلام سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض حتى وصل إلى «إبراهيم» عليه السلام، ثم إن «جبريل» عليه السلام اقتلع المدائن بيده، وفي رواية: أدخل جناحه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الإعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع

(١) انظر روح المعاني (١٢/١٠٨ ـ ١١٠).

السليمة، ولا ينبغي أن يجعل الكلام كناية عن إنزال أمر عظيم فيها كما يقول القائل: اليوم قلبت الدنيا على فلان، لما فيه من العدول عن الظاهر، والانحراف عما نطقت به الآثار من غير داعٍ سوى استبعاد مثل ذلك، وما ذلك ببعيد، وإسناد الجعل إلى ضميره تعالى باعتبار أنه المسبب فهو إسناد مجازي، باعتبار اللغة، وإن كان سبحانه هو الفاعل الحقيقي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، فإن ما يتولاه العظيم من الأمور فهو عظيم ويقوي ذلك ضمير العظمة أيضاً. وأمطر الله تعالى حجارة من طين متحجر معلمة.

قال ابن جريج: ليست من حجارة الأرض.

قال ابن عباس والحسن: معلمة ببياض وحمرة، وفي رواية أخرى لابن عباس: أنه كان بعضها أسود فيه نقطة بيضاء، وبعضها أبيض فيه نقطة سوداء.

وعن الربيع أنها كانت معلمة باسم من يرمى بها.

وكان بعضها كما قيل: مثل رؤوس الإبل، وبعضها مثل مباركها، وبعضها مثل قبضة الرجل، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود، الآية: ٨٣] لم تكن الحجارة لتخطئهم.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا

عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر، الآيات: ٥١-٧٧] .

ما أروع هذا البيان! وما أعظم بلاغة القرآن! لقد وقف أرباب الفصاحة حياله عاجزين، وانقلب الذين حاولوا محاكاته وتقليده خاسئين، وأنى للمخلوق أن يبلغ شأو كلام أحسن الخالقين؟ وقد أسعفني الخاطر بهذه الأبيات[1]:

نَزَّهْتُ طرفيَ في أحب مَغَانِ ... وأخذتُ أبحث عن أجلِّ بَيانِ
وسألتُ فرسانَ البيان فجاءني ... عنهم فرائدُ قد خَلَبْنَ جناني
لكن عينيَ لم تَقَرَّ بما رأتْ ... والأُذْنَ لم تنعم بالاطمئنانِ
حتى وقفتُ أمام أكملِ مُنْزَلٍ ... وتلوت بعض روائع القرآنِ
والحق أني لم أجد ككلامه ... مبنًى ولم أر مثله كَمَعانِ
مهما ارتقى أهل البيان وأينعت ... أفكار ما أفضى به الثقلانِ
نور مبين جاء من متفضِّلٍ ... عَمَّ الأنام بأفضل الإحسانِ
وأفاض خيراً مذ أهَلَّ بشيره ... بلسانه العربي خير لسانِ
ولقد أتى حينٌ عليهم قبله ... كان الحليم يهيم كالحيرانِ
حتى إذا مَسَّ القلوبَ ضياؤه ... باتت عيونهم مع الآذانِ
أسرى هدايته التي كشفت لهم ... فضل (الكريم) على بني الإنسانِ

إنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، يهدي إلى الرشد فآمنا به، والحمد لله الذي أنزله على أشرف خلقه «محمد» ﷺ.

وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا المثنى، قال: أخبرنا إسحاق، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثني عبد الصمد أنه سمع وهب بن منبِّه يقول: كان أهل «سَدُوم» الذين فيهم «لوط» قومَ سَوْء، قد استغنوا عن النساء بالرجال، فلما رأى الله ذلك منهم بعث الملائكة ليعذبوهم، فأتوا «إبراهيم» فكان أمره وأمرهم ما ذكره الله تعالى في كتابه، فلما بشَّروا «سارة» بالولد قاموا وقام

(١) الأبيات من قصيدة للشاعر محمد راجي كناس بعنوان: (مع النور المبين).

معهم «إبراهيم» يمشي، فقال: أخبروني لِمَ بعثتم وما خطبكم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم «سَدُوم» لندمِّرها فإنهم قوم سَوْء، قد استغنوا بالرجال عن النساء.

قال «إبراهيم»: أرأيتم إن كان فيهم خمسون رجلاً صالحاً؟ قالوا: إذاً لا نعذبهم، فلم يزل ينقص حتى قال أهل البيت، قالوا: فإن كان فيهم بيتٌ صالح، قال: فلوط وأهل بيته، قالوا: إن امرأته هواها معهم.

فلما يئس «إبراهيم» انصرف ومضوا إلى أهل «سَدُوم» فدخلوا على «لوط»، فلما رأتهم امرأته أعجبها حسنُهم وجمالُهم، فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوماً قط أحسن منهم ولا أجمل، فتسامعوا بذلك، فغَشُوا دار «لوط» من كل ناحية، وتسوَّروا عليهم الجدران، فلقيهم «لوط» فقال: يا قوم! لا تفضحونِ في ضيفي، وأنا أزوجكم بناتي فهُنَّ أطهر لكم، فقالوا: لو كنا نريد بناتك، لقد عرفنا مكانهن، فقال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، فوجَد عليه الرسل ـ الملائكة ـ فقالوا: إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، فمسح أحدهم أعينهم بجناحه، فطمس أبصارهم، فقالوا: سحرنا، انصرفوا بنا حتى نرجع إليه، فكان من أمرهم ما قد قص الله تعالى في القرآن، فأدخل «ميكائيل» وهو صاحب العذاب جناحيه حتى بلغ أسفل الأرضين، فقلبها، فنزلت حجارة من السماء، فتتبعت من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله، ونَجَّى «لوطاً» وأهله إلا امرأته[1].

تلك كانت خيانة «والهة» امرأة «لوط» عليه السلام حيث كشفت سر زوجها بوجود ضيوف حسان لديه لقومه، رغم علمها بفسادهم وسوء طواياهم.

وفي رواية غير وَهْب بن منبه أن الذي قلبها «جَبْرائيل» عليه السلام.

ـ حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، قال: حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: أخذ «جَبْرائيل» قوم «لوط» من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها.

ـ حدثنا أبو كريب مرة أخرى، عن مجاهد، فقال: أدخل «جَبْرائيل» جناحيه

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠٤).

تحت الأرض السفلى من قوم «لوط»، ثم أخذهم بالجناح الأيمن، وأخذهم من سرحهم ومواشيهم، ثم رفعها.

ـ حدثني المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، قال: وحدثني هذا ابن أبي نجيح، عن إبراهيم بن أبي بكر، قال: ولم يسمعه ابن أبي نجيح من مجاهد، قال: فحملها على خوافي جناحيه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها شرافها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر، الآية: ٧٤] ،

ـ حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، قال: بلغنا أن «جَبْرائيل» عليه السلام أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضَوَاغيَ كلابهم، ثم دمَّر بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة ألاف ألف[1]. وجاء في الحديث عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم «لوط» فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»، رواه الترمذي.

وفي سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العَنكبوت، الآيات: ٢٨-٣٠] ، لقد ابتدعتم هذه الفاحشة التي لم يسبقكم أحد إليها، وكل من كانوا قبلكم كانوا يتحاشون عنها لأنها مما تشمئز منه الطباع السليمة، إنكم تدعون ما أحل الله لكم نكاحه من النساء حلالاً، وتأتون الرجال من دونهن، وهو حرام عليكم، ولم يَكفكم هذا الفعل الشنيع حتى رحتم تقطعون على الناس السبيل وتكلفون الغرباء والمارة تلك الفعلة القبيحة بإتيانهم مكرهين، فتقطعون بذلك النسل، وتقتلون الناس، وتسلبونهم أموالهم، وفوق هذا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

وذاك تأتون المنكر سراً وعلانية في مجالسكم.

وذكر «الآلوسي» رحمه الله في تفسير الآية: أخرج أحمد والترمذي وحسَّنه، والحاكم وصححه، والطبراني، والبيهقي في «الشُّعَب»، وغيرهم، عن أم هانىء بنت أبي طالب، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت، الآية: ٢٩] ، فقال: «**كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون ـ يرمون بالحصى أو النوى ـ أبناء السبيل ويسخرون منهم**».

وعن مجاهد، ومنصور، والقاسم بن محمد، وقتادة، وابن زيد: هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن مجاهد أيضاً هو لعب الحمام، وتطريف الأصابع ـ أي: تزيينها وصبغها ـ بالحِنَّاء، والصفير، والخذف، ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس: هو تضارطهم وتصافعهم فيها.

وفي رواية أخرى عنه: هو الخذف بالحصى، والرمي بالبنادق، والفرقعة، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحَلُّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، ولم يأت في قصة «لوط» عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، كما جاء في قصة «إبراهيم» لأن «لوطاً» كان من قوم «إبراهيم»، وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده[1] ، لقد ابتلى الله تعالى «لوطاً» بشر قوم، ثم أخرجه من بين ظهرانيْهم، وأخذهم أخذاً وبيلاً.

ولا غَرْوَ أن تقف «والهة» في صف المعادين لزوجها «لوط» عليه السلام وتكون حرباً عليه، سلماً لمن عاداه، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن، الآيتان: ١٤،١٥] فالمعاداة بين الأزواج حاصلة وعقوق الأولاد لآبائهم لا ينكر، وقد بَيَّن التنزيل المبين كيف وقفت امرأة «نوح» عليه السلام مع القوم الكافرين، ونسبت إليه الجنون وهو العاقل الحكيم، ولا أدل على عقله وحكمته،

(١) روح المعاني (٢٠/١٥٣).

من اصطفاء الله تعالى له لحمل رسالته، وما كان الله ليصطفي المجانين ليدعوا العقلاء إلى عبادته، لأن العقول السليمة ترفض ذلك وتأباه ولا تُسيغه، فالمجنون لا يهتدي لخير نفسه، فكيف يحمله إلى سواه؟

وكذلك تحدث التنزيل العزيز عن عقوق «كنعان بن نوح» لأبيه، ووقوفه مع من يعاديه، ورفضه لدعوته، رغم شدة حرص «نوح» عليه السلام على تخليصه من ربقة الكفر، ورغبته الملحة في نجاته من الغرق مع الكفرة والمعاندين.

إن الأزواج والأولاد والأموال إن هي إلا فتنة وابتلاء يختبر بها المؤمنون للتثبت من صحة إيمانهم وصلابته، ومدى صبرهم واحتمالهم وقدرتهم على اجتياز مثل هذه المحنة عند تعرضهم لها، والسعيد السعيد من حالفه النجاح في الامتحان، واستعان بالله العظيم أكرم مستعان.

وقد يقال: إن عداوة الأزواج والأولاد من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات، والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يكونون سبباً في حملهم على السعي في اكتساب الحرام، وركوب مراكب الآثام لمنفعة ذواتهم، وتأمين طلباتهم، وإن كانت مرهقة، أولم تكن الحاجة ماسة إليها، أو ثمة ضرورة تحض على تأمينها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء فيهلك**».

وربُ قوم حملهم الحب لأزواجهم وأولادهم، والشفقة عليهم، على أن يكونوا في عيش رغيد في حياتهم أو بعد مماتهم فيكدحون ويكدون، ويقعون في المحظورات والمحاذير دون تبصر بعواقب السوء التي تنتظرهم آن تنشر الصحائف، ويحين الحساب، الآتي من غير شك ولا ارتياب.

فليحرص المؤمن على مرضاة الله، ومرضاة رسوله ﷺ، وإن سخط الناس جميعاً، ولتكن زَادَهُ التقوى فإنها خير زاد، وهي سبيل النجاة لمن يرجوها يوم المعاد.